إبن جني بلاغياً
في كتابه (الخصائص)

أ. د. فائز طه عمر
كلية الاداب / جامعة بغداد
قسم اللغة العربية

كان، من ابرز سمات الاسلاف الكبار ، موسوعية معرفتهم ، وتنوع اهتماماتهم ، في سياق نظرة كلية للاشياء ، وللعلم وشعورهم ، بترابط اجزاء المعرفة وجوانبها ، ولا سيما في الميدان الواحد؛ فاللغوي المعني باللغة لا بد من أن يصرف بعض اهتمامه الى ما تحققه هذه اللغة من اساليب ومن دلالات عديدة تبعاً لتعدد قدرتها على التكيف بحسب المعنى المقصود، لذا أظن أن العناية بالبلاغة كانت منبثقة من صلب العناية باللغة كلها ، واستعمالها، وما فيها من طرائق تعبير، مما تجلى لدى ابي الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ) اللغوي، والموسوعي الفذ الذي ادرك مقدرة اللغة على أن تتشكل ، بحسب قصد من يستعملها، وباساليب مؤثرة ، فتحقق بلاغتها ، لذا اعني هذا الرجل ببعض جوانب البلاغة المهمة ، فقال آراء وأبدئ ملاحظ بلاغية اصيلة تنمّ عن استيعاب عميق لاساليب العرب في كلامهم ، وبيانهم ؛ ولعلّ الذي جعله يعنى بالبلاغة، ايضاً ، نظرته الكلية الى اللغة، فهو يؤمن بـ (أن علوم اللغة مترابطة فيما بينها ، وانه يمكن الاستدلال ببعضها على بعض)[١] .

ومن هنا كانت عنايته بايراد العلل التي بدت (متعلقة بطبيعة اللغة نفسها) [٢] ، مستعيناً ، على ذلك بثقافته وتمكنه من الشعر والنثر، مما ظهر جلياً في آثاره الغزيرة المتنوعة[٣].

إن هذا كله اهله ، في علم اللغة العام خاصة ، لان يتمكن من القياس ، ويشتهر به ، على نحو حر[٤]، فلا يقيد نفسه. الا بالاصول ، وبكليات المسائل التي عني بها كثيراً[٥]، مما قاده الى العناية بالبلاغة ، لشدة عنايته بالمعنى الذي عده مخدوماً من اللفظ[٦] ، ولما كانت البلاغة تعنى باللفظ عند تاديته المعنى ، فيأخذ شكله ونظمه من المعنى الذي يؤديه ، ومن المقام الذي يقال فيه ، استناداً الى مقولة مقتضى الحال ، أو أن لكل مقام مقالاً ، لذا بدت

اشار اليه الحاظ قبله. وتناول حذف المفعول به[٣٠] ، وحذف ((المعطوف تارة ، والمعطوف عليه أخرى))[٣١] وحذف المستثنى[٣٢]، وحذف ((خبر أن مع النكرة خاصة ، نحو قول الأعشى:

إن محلاً وإن مرتحلاً　　وإن في السفر إذا مضوا مهلاً

أي إن لنا محلاً ، وإن لنا مرتحلاً))[٣٣] ، وتناول ، كذلك ، حذف احد مفعولي ظننت واخواتها[٣٤]، وغير ذلك من اضرب الاسم المحذوف[٣٥].

وتحدث عن حذف الفعل ، وعدّ أحد نوعيه وهو حذفه وفاعله في باب حذف الجملة ، على أن ((الآخر أن تحذف الفعل وحده ، وهذا هو غرض هذا الموضع)) [٣٦]، وضرب ، على ذلك ، أمثلة بين ما فيها من حذف الفعل ، نحو قول الشاعر:

((اذا ابن ابي موسى بلال بلغته　　فقام بفاس بين وصليك جازر

أي اذا يبلغ أبن أبي موسى ، وعبرة هذا الفعل المضمر اذا كان بعده اسم منصوب به ففيه فاعله مضمراً)) [٣٧].

وتناول حذف الحرف بايجاز، ولم يأت عليه بامثلة[٣٨] على أن تعليقاته ، على ما أتى به من امثلة لأضرب الحذف التي ذكر شيئاً منها ، كانت ذات طابع نحوي ، في الاكثر.

وقد اشرنا الى أن ابن جني يعتقد بان العرب كانوا يطيلون الكلام الحاجة في نفوسهم ، وان بدوا متثاقلين في ذلك، مما يعني أن الزيادة أو الاطالة أو ما سمي بالاطناب اذا ما لبّى حاجة فقد اوفى بمتطلبات مقتضى الحال أو المقام، مما يدخل الزيادة أو الاطناب في مفهوم بلاغة الكلام[٣٩].

ومن هنا فقد تناول ابن جني مظهرين للاطالة أو الزيادة ، هما التوكيد ، والاعتراض . فقد تناول التوكيد في (باب في الاحتياط) [٤٠].

وهو اسلوب اتبعته العرب لتمكين المعنى وللاحتياط له ، يقول ابن جني : ((اعلم أن العرب اذا ارادت المعنى مكنته واحتاطت له فمن ذلك التوكيد)) [٤١] وقد عده على ضربين : ((احدهما تكرير الاول بلفظه ، وهو نحو قولك ، قام زيد قام زيد ، و ضربت زيداً وضربت ... وقال :

المحذوفة))[١٦]، واتى بامثلة أخرى عديدة من القرآن الكريم والشعر العربي ، وابان عما فيها من حذف جمل نحو قوله : ((وعليه قول الله سبحانه : (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا)) أي ضرب فانفجرت...))[١٧]، ويعلل كثرة حذف الجملة المكونة من الفعل والفاعل خاصة ، لمشابهتها المفرد بقوله : ((وانما تحذف الجملة من الفعل والفاعل لمشابهتها المفرد ، بكون الفاعل في كثير من الامر بمنزلة الجزء من الفعل...))[١٨] ، وهذا تعليل ذو طابع نحوي ، مع فائدته البلاغية.

وأما حذف المفرد فهو مقسوم ، بحسب أنواع الكلمة ، على ((ثلاثة اضرب : اسم ، فعل ، وحرف))[١٩] وتابع ورود هذه الاضرب في كلام العرب ، فذكر أن حذف الاسم على أضرب[٢٠] ، ايضاً، فمنه حذف المبتدا الذي هو كثير، نحو ((قوله عز وجل : (كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا الاساعة من نهار بلاغ ، أي ذلك ، أو هذا بلاغ. وهو كثير)) [٢١]، ومنه حذف الخبر، و((قد حذف المضاف ، وذلك كثير وواسع))[٢٢] ويرى أن ((حذف المضاف ضرب من الاتساع ، ومنه قوله – عز اسمه – (واسأل القرية))) أي أهلها . وقد حذف المضاف مكرراً ، نحو قوله تعالى:

(فقبضت قبضةً من اثر الرسول أي من تراب اثر حافر فرس الرسول))[٢٣]، وذكر أنواعاً اخرى لحذف الاسم، كحذف المضاف اليه[٢٤] وحذف الموصوف واقامة الصفة مقامه الذي عده كثيراً ((في الشعر . وانما كانت كثرته فيه دون النثر ، من حيث كان القياس يحظره ..)) [٢٥] ، ذلك أنه يعدّ ((من الالباس وضد البيان ..)) [٢٦] مالم يقم عليه دليل : ((واذا كان كذلك كان حذف الموصوف انما هو متى قام الدليل عليه أو شهدت الحال به. وكلما استبهم الموصوف كان حذفه غير لائق بالحديث)) [٢٧].

وتحدث عن حذف الصفة :((وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها))[٢٨] ويبدو أن دليل حذف الصفة حاليّ مستمد من مقام القول وما يحيط به ، مما بينه بقوله : ((وانت تحس هذا من نفسك اذا تأملته . وذلك أن تكون في مدح انسان والثناء عليه ، فتقول : كان والله رجلاً فتزيد في قوة اللفظ بـ (الله) هذه الكلمة، وتتمكن في تمطيط اللام واطالة الصوت بها، وعليها، أي رجلاً فاضلاً أو شجاعاً أو كريماً، أو نحو ذلك... وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سالناه وكان انساناً ! وتزوي وجهك وتقطبه ، فيعني ذلك عن قولك : إنساناً لئيماً أو لحزاً أو مبخلاً أو نحو ذلك))[٢٩]، فهذه الملاحظة الطريفة ، وغيرها ، تدلّ على عمق فهم ابن جني ، وقوة ملاحظته ، وإدراكه أن الدلالة تظهر بوسائل عديدة تستمد من حال المتكلم وهيئته ، مما

اللغة وعلاقتها بالمعنى. وقد اكثر ابن جني من الاستشهاد للاعتراض، بامثلة كثيرة من الشعر العربي، مبيناً ما فيها من مواضع الاعتراض[٤٩] ، مؤكداً ، من خلال ذلك ، ((أن الاعتراض لا موضع له من الاعراب، ولا يعمل فيه شيء من الكلام المعترض به بين بعضه وبعض...))[٥٠]، ويشير ابن جني ثانية الى كثرة الاعتراض في شعر العرب قديمه وحديثه، وفي نثرهم، بقوله: ((والأعتراض، في شعر العرب ومنثورها ، كثيرا وحسن ، ودال على فصاحة المتكلم ، وقوة نفسه، وامتداد نفسه ، وقد رأيته في اشعار المحدثين ، وهو في شعر ابراهيم بن المهدي اكثر ، منه في شعر غيره من المولدين)) [٥١] ففي هذا النص القصير ، دلالات نقدية ، تبنيء عن ذوق ابن جني وثقافته.

• وتحدث ابن جني عن بعض التراكيب والاساليب، و خروجها، عن معانيها الحقيقية، الى معان مجازية مقصودة من المتكلم، مستعيناً بغزارة الشواهد القرآنية ، والشعرية، مع صواب التعليقات، من ذلك حديثه عن (هل) ، و(الهمزة) وتحولهما عن معنى الاستفهام الى معان اخرى ، من خلال باب طريف من ابواب كتابه، وهو (باب في اقرار الالفاظ على اوضاعها الاول ، مالم يدع داع الى الترك والتحول) .

وهذا باب له صلة بالبلاغة ، ولا سيما ما هو متعلق بانتقال دلالة الكلام من معانيه الحقيقة الى معان اخرى ، ففي (هل) قال : (فأما (هل) فقد أخرجت عن بابها الى معنى قد ، نحو قول الله تعالى سبحانه : (هل اتى على الانسان حين من الدهر . قالوا : معناه : قد اتى عليه ذلك[٥٢]، وهو إذ ينقل هذا الرأي ، يرى امكان أن تبقى (هل) هنا على معنى الاستفهام ، بقوله: ((وقد يمكن ، عندي ، أن تكون مبقاة على بابها من الاستفهام ، فكانه قال ، والله اعلم: هل اتى على الانسان هذا ؟ فلا بد في جوابه من (نعم) ملفوظاً بها أو مقدرة ، أي فكما أن ذلك كذلك فينبغي للانسان أن يحتقر نفسه ، ولا يبأى بما فتح له))[٥٣] ، فهذا تأويل طريف.

ويرى أن ادوات الاستفهام ربما استحالت خبراً في مواضع، منها اجتماع الاداتين (هل والهمزة) في سياق واحد ، في قوله الذي ساقه بطريقة الحوار: ((فأن قلت : فما تصنع بقول الشاعر :

سائلْ فوراس يربوع بشرّتنا　　أهل رأونا بسفح القف ذي الأكم

الا ترى الى دخول همزة الاستفهام على هل، ولو كانت على ما فيها من الاستفهام لم تلاق همزته لا ستحالة اجتماع حرفين لمعنى واحد. وهذا يدل على خروجها عن الاستفهام الى معنى الخبر.

اذا التيار ذو العضلات قلنا　　اليك اليك ضاق بها ذراعا...))[٤٢]

وقد اكثر من ايراد الشواهد على هذا الضرب من التكرار الذي عده كثيراً جداً، سواء في الجمل أو في المفرد[٤٣].

اما الضرب الثاني من التكرير فهو تكرير المعنى ، وعده على ضربين : ((احدهما للاحاطة والعموم، والاخرى للتثبيت والتمكين. الاول كقولنا : قام القوم كلهم، ورأيتهم اجمعين.. والثاني نحو قولك: قام زيد نفسه، ورأيته نفسه)) [٤٤].

وقد تناول اساليب اخرى من التوكيد ، منها التوكيد بالصفة ، في قوله : ((وقد يؤكد بالصفة ، كما تؤكد هي ، نحو قولهم امس الدابر ، وامس المدبر، وقول الله تعالى : (الهين اثنين) وقوله تعالى (ومناة الثالثة الاخرى...))[٤٥].

وقد عد ابن جني الصفة من الاطناب، فهي تحقق غرضين هما : التخليص والتخصيص، والمدح والثناء ((وكلاهما من مقامات الاسهاب والاطناب، لامن مقامات الايجاز ولاختصار)) [٤٦].

وعقد للاعتراض باباً خاصاً ، وعده جاريا مجرى التاكيد ، وهو كثير الورود في كلام العرب عامة ، يقول ابن جني :

((اعلم أن هذا القبيل ، من هذا العلم ، كثير ، قد جاء في القرآن ، وفصيح الشعر ، ومنثور الكلام. وهو جار عند العرب ، مجرى التاكيد))[٤٧]، ومن هنا رأى انه لا ينكر ، على العرب، اعتراضهم بين الفعل وفاعله، والمبتدأ وخبره، مما لا يجوز الفصل فيه بغير الاعتراض: ((فلذلك لا يشنع عليهم ، ولا تستنكر عندهم ، أن يعترض به بين الفعل وفاعله ، والمبتدأ وخبره، وغير ذلك مما لا يجوز الفصل فيه لغيره، الا شاذاً أو متأولاً. قال الله سبحانه و تعالى: (فلا اقسم بمواقع النجوم ، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ، وانه لقران كريم. فهذا فيه اعتراضان احدهما قوله : (فلا اقسم بمواقع النجوم). وبين جوابه الذي هو قوله: (لوتعلمون)، فذاك اعتراضان كما ترى. ولو جاء الكلام غير معترض فيه لوجب أن يكون : فلا اقسم بمواقع النجوم ، إنه لقران كريم ، وانه لقسم عظيم لو تعلمون.))[٤٨] فهنا يبدو ابن جني مقتدراً على تحليل نظم هذه الايات ، على نحو بين ، مستعينا بقدراته اللغوية ، ونظرته الكلية الى

في معاني الاعراب . ولاتكاد تجد شيئاً ، من ذلك ، الا و الغرض فيه المبالغة . فمما جاء ذلك للعرب، قول ذي الرمة :

ورمل كاوراك العذارى قطعته　　إذا البسته المظلمات الحنادسُ

أفلا ترى ذا الرمة كيف جعل الاصل فرعاً ، والفرع اصلاً، وذلك أن العادة والعرف ، في نحو هذا ، أن تشبيه اعجاز النساء بكثبان الاقاء))[٦٥] ، فاشارته إلى العادة والعرف تفيد بمعرفته الوافية بالموروث الشعري العربي وما يضمه من تشبيهات مألوفة فيه، اما ذو الرمة فقد خرج على هذا الاستعمال الموروث والمألوف بان جعل المشبه مشبها به، وكان الغرض، من هذا ، هو المبالغة في صفة المشبّه الذي اصبح مشبهاً به، إذ يقول: ((فقلب ذو الرمة العادة والعرف في هذا ، فشبه كثبان الاقاء باعجاز النساء . وهذا كانه يخرج مخرج المبالغة ...))[٦٦]. وأورد امثلة عديدة على هذا الضرب من التشبيه ، من اشعار شعراء قدامى ومحدثين ، معلقاً على بعضها ، على نحو نقدي ذوقي جميل ، من ذلك قوله : ((وما احسن ما ساق الصنعة فيه الطائي الكبير :

كم احرزتْ قضبُ الهندي مصلتةً

تهتز من قضب تهنز في كثب

ولله البحتري فما اعذب واطرف وأدمث قوله :

أين الغزال المستعير من النقا　　كفلاً ومن نور الاقاحي مبسماً)) [٦٧]

وعني ابن جني بالمجاز عناية كبيرة ن في بابين خصصهما له ، اختص احدهما بالتمييز بين الحقيقة والمجاز، وهو ((باب في فرق بين الحقيقة والمجاز))[٦٨] ، والثاني تابع له، فيه، مسألة كثرة المجاز مما يلحقه بالحقيقة، وهو: (باب في أن المجاز إذا كثر لحق بالحقيقة)[٦٩]، فهو لم يقل صار حقيقة بل (لحق) بها، مما يشير إلى دقته في تعبيره عن أفكاره.

وقد عرّف ، في (باب في فرق بين الحقيقة و المجاز) الحقيقة تعريفا دقيقاً صائباً ، ليصل ، من خلاله ، إلى تحديد المجاز وتعريفه بقوله: ((الحقيقة ما اقر في الاستعمال على اصل وضعه في اللغة ، والمجاز ما كان بضد ذلك))[٧٠] ، فهذا التمييز بين الحقيقة والمجاز ، مع كونه لغوياً ،هو تمييز صائب ، يشير إلى ادراك حقيقة المجاز وعدوله عن الحقيقة اللغوية التي اتفق عليها، بالاستعمال، فأذا ما عدل عنها إلى ما هو ضدها ، او نحوه ، اصبح الاستعمال

قيل : هذا قول يمكن أن يقوله صاحب هذا المذهب))[٥٤] ، وهذا يشير الى تفريقه بين الاسلوب الخبري ، والانشائي على ما هو معروف لدى البلاغيين عامة.

وتحدث عن خروج همزة الاستفهام الى التقرير ، فتصبح ذات دلالة خبرية ، وهو يسوغ ذلك بمسوغات لغوية ذات صلة بالبلاغة[٥٥]، ثم أنه يرى أن همزة التقرير ((تنقل النفي الى الاثبات والاثبات الى النفي ، وذلك كقوله :

الستم خير من ركب المطايا　　واندى العالمين بطون راح)) [٥٦]

واشار الى ما تفيده هذه الهمزة، في مقامات معينة، من معنى الانكار[٥٧]. وذكر مسوغاً عاماً لخروج الاستفهام عن معناه الحقيقي، بقوله ((واعلم انه ليس شيء يخرج عن بابه الى غيره الا لأمر قد كان وهو على بابه ملاحظاً له، وعلى صدد من الهجوم عليه. وذلك أن المستفهم، عن الشيء، قد يكون عارفاً به مع استفهامه في الظاهر عنه، لكن غرضه في الاستفهام عنه اشياء ..)) [٥٨] .

وقد يخرج الكلام الخبري عن خبريته الى الطلب ، بحسب قصد المتكلم ، مما اشار اليه ابن جني في حديثه عن قول العرب : (لا ابا لك)، بقوله : ((وذلك أنّ قولهم: (لا أبا لك.) كلام جرى مجرى المثل ،وذلك انك أذا قلت هذا فانك لا تنفي، في الحقيقة، إياه، وإنما تخرجه مخرج الدعاء ، أي انت عندي ممن يستحق أن يدعى عليه بفقد ابيه ..)) [٥٩].

وتناول التقديم والتأخير في (باب في شجاعة العربية) في (فصل التقديم والتأخير..)[٦٠]، وعده ((على ضربين أحدهما ما يقبله الناس . والاخر ما يسهله الاضطرار))[٦١]. ومع أن تناوله هذا كان ذا طابع نحوي ، يمكن الافادة ، من بعض مما قاله ، في باب البلاغة[٦٢].

قضايا في البيان :

عني ابن جني بموضوعات مهمة ، في ضمن علم البيان ، من ابرزها : التشبيه المقلوب ، والمجاز وتعريفه ، وتمييزه من الحقيقة ، ومعانيه ودلالاته ، واشارات الى شواهد قرآنية فيها مجاز عقلي ، والى بعض كنايات العرب ، مما سنحاول إيجازه.

وقد تناول التشبيه المعكوس ، أو المقلوب، أو المنعكس[٦٣] ، في باب، من كتابه (الخصائص) سماه (باب من غلبة الفروع على الاصول) [٦٤]، وهو جعل المشبه مشبها به لغرض ، وقال فيه ((هذا فصل من فصول العربية ، طريف، تجده في معاني العرب، كما تجده

ويعتقد بان الكثير من الاستعمالات الداخلة في باب الشجاعة في اللغة إنما هو داخل في المجاز، مما نراه في قوله : ((ومن المجاز كثير من باب الشجاعة في اللغة : من الحذوف ، والزيادات، والتقديم، والتاخير، والحمل على المعنى، والتحريف))[٧٥]، واتى على هذا بمثالين، منهما قوله سبحانه (واسأل القرية التي كنا فيها، فقد حلله بما يظهر ما فيه من معاني الاتساع، والتوكيد ، والتشبيه[٧٦] . ويبدو أنه يرى أن الاتساع ، في اللغة ، بما يضفيه الاستعمال على الكلمة في سياق معين من دلالات اخرى ، هو امر متحقق في جميع اساليب التعبير التي تحقق شجاعة العربية بقوله : ((وكيف تصرفت الحال فالاتساع فاش في جميع اجناس شجاعة العربية)) [٧٧] .

ويقول ابن جني ((ان اكثر اللغة ، مع تأمله ، مجاز لا حقيقة))[٧٨] .

مما جاء في (باب أن المجاز اذا كثر لحق بالحقيقة) في الموضع نفسه ، وهذا رأي عميق وطريف ، وفيه تتبع لأنتقال دلالات الالفاظ ، عبر الاستعمال . وقد اورد تعليلاً عقلياً اثبت، به ، صواب رأيه ، مما نقرؤه في قوله : ((الا ترى أن يفاد معنى الجنسية ، فقولك ، قام زيد ، معناه : كان منه القيام أي هذا الجنس من الفعل ، ومعلوم انه لم يكن منه جميع القيام ، وكيف يكون ذلك وهو جنس والجنس يطبق جميع الماضي وجميع الحاضر وجميع الاتي الكائنات من كل من وجد منه القيام. و معلوم انه لا يجتمع لانسان واحد ، في وقت واحد ، ولا في مائة الف سنة القيام كله الداخل تحت الوهم ، وهذا محال عند كل ذي لب ، فاذا كان كذلك علمت أن (قام زيد) مجاز لا حقيقة، وإنما هو على وضع الكل موضع البعض للاتساع والمبالغة و تشبيه القليل بالكثير ..))[٧٩]، وربما كان ابن جني، في هذا الموضع وفي غيره ، قد نظر (الى الحقيقة من جهة الاصل في الوضع ، ولم يراع تواضع اهل اللغة في الاستعمال) [٨٠] على أن ذلك لايطرد على آرائه في المجاز ، كلها.

ويقول إن من المجازات قولنا : ((خلق الله السماء والارض وما كان مثله ، الاترى أنه عز اسمه – لم يكن منه بذلك خلق افعالنا ، ولو كان حقيقة لا مجازاً لكان خالقاً للكفر والعدوان وغيرهما من أفعالنا عز وعلا))[٨١]. ففي هذا القول ما يفيد باقتصار الخالق سبحانه على خلق أفعال الخير ، اما الشر فهو ممن يأتي به، وهذا ما يقوله المعتزلة الذين كان ابن جني أحدهم[٨٢].

ويرى ابن جني، توكيداً لما يراه، أن التوكيد ، في الكلام ، دليل على المجاز ، فالتوكيد

مجازيا وعلل وقوع المجاز لمعان ذكرها بقوله: ((وإنما يقع المجاز، ويعدل اليه ، عن الحقيقة ، لمعانٍ ثلاثة وهي : الاتساع، والتوكيد، والتشبيه ، فأن عدم هذه الاوصاف كانت الحقيقة البتة . فمن ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم في الفرس: هو بحر ،فالمعاني الثلاثة موجوده فيه. اما الاتساع فلأنه زاد في اسماء الفرس التي هي فرس وطرف وجواد ونحوها البحر، حتى إنه إن احتيج اليه في شعر أو سجع أو اتساع استعمل استعمال بقية تلك الاسماء، ولكن لا يفضي الى ذلك الا بقرينة تسقط الشبهة... ولو عري الكلام من دليل يوضح الحال ، أم يقع عليه بحر، لما فيه من التعجرف في المقال من غير ايضاح ولا بيان . الا ترى أن لو قال رأيت بحراً وهو يريد الفرس لم يعلم بذلك غرضه ، فلم يجز قوله، لانه إلباس ، والغاز على الناس.

واما التشبيه فلان جريه يجري، في الكثرة، مجرى مائه. واما التوكيد فلانه شبه العرض بالجوهر، وهو اثبت في النفوس منه ، والشبه في العرض منتفية عنه، الا ترى أن من الناس من دفع الاعراض، وليس أحد دفع الجواهر))[٧١]، فأبن جني ، في ما قرأناه ، يرى ضرورة وجود القرينة التي هي الدليل على أن الكلمة المستعملة لا يراد بها معناها الحقيقي ، بل المجازي المقصود[٧٢] ، وهو هنا قد سبق الكثيرين ، في ذلك.

ونقرأ مثالاً آخر جاء في قوله : ((وكذلك قول الله سبحانه : وادخلناه في رحمتنا)) هذا هو مجاز. وفيه الاوصاف الثلاثة. اما السعة فلانه كأنه زاد في اسماء الجهات والمحال اسما هو الرحمة.

وأما التشبيه فلانه شبه بالرحمة – وإن لم يصح دخولها – بما يجوز دخوله ، فلذلك وضعها موضعه . وأما التوكيد فلانه اخبر عن العرض بما يخبر به عن الجوهر. وهذا تعال. بالعرض وتفخيم منه، إذ صير الى حيز ما يشاهد ويلمس ويعاين ، الاترى الى قول بعضهم في الترغيب في الجميل: ولو رأيتم المعروف رجلاً لرأيتموه حسناً. وإنما يرغب فيه بأن ينبه عليه، ويعظم من قدره ، بان يصوره في النفوس على اشرف احواله ، وأنوه صفاته ، وذلك بأن يتخيل شخصاً متجسماً لا عرضا متوهماً))[٧٣] ، ففي هذا التحليل ما يشير الى فهم ابن جني ما يفعله المجاز في النفوس من تأثير ، من خلال ما يصور به المعنى بصور مادية مجسمة له ، لتحقيق الغرض المقصود.

وادرك ابن جني الكثير من الاستعارات التي استعملها الشعراء العرب في ابيات اتى بها شواهد عليها ، مصرحاً بان ((هذه الاستعارات كلها داخلة تحت المجاز))[٧٤] .

وأورد امثلة أخرى، على هاتين العلاقتين المجازيتين ، من القران الكريم، والشعر العربي، في هذا الموضع ، وفي غيره(٩٠).

ولم يفت ابن جني ذكر استعمالات مجازية اخرى ، عدت لدى البلاغيين ، من باب المجاز العقلي(٩١) ، من ذلك البناء على المفعول والاسناد للفاعل ، مما نجده في قوله تعالى : (من ماء دافق وما اشبهه ، فأوله بقوله : ((إنه بمعنى مدفوق ، فهذا – لعمري – معناه غير أن طريق الصنعة فيه انه ذو دفق، كما حكاه الأصمعي عنهم من قولهم: ناقة ضارب اذا ضربت. وكذلك قوله تعالى: (لا عاصم اليوم من امر الله)، أي لا ذا عصمة ، وذو العصمة يكون مفعولاً، كما يكون فاعلاً، فمن هنا قيل إن معناه: لا معصوم))(٩٢)، ومع أن هذا التأويل بدا لغوياً، له أثر في ادراك الاستعمال المجازي، وطبيعته عند العرب، وخروجهم إلى اسناد الشيء الى غير صاحبه. لقد كان لاراء ابن جني، في المجاز، عامة، اثر في البلاغيين، من بعده(٩٣).

وأدرك ابن جني ، من كنايات العرب ، ما يستعمل في خطاب الملوك بالغيبة ودون ذكر اسمائهم تعظيماً ،مما نجده في قوله : ((... إنما لم تخاطب الملوك باسمائهم أعظاماً لها ، اذ كان الاسم دليل المعنى ، وجارياً في اكثر الاستعمال مجراه ، حتى دعا ذاك قوماً الى أن زعموا أن الاسم هو المسمى . فلما أرادوا إعظام الملوك وإكبارهم تجافوا وتجانفوا عن ابتذال اسمائهم التي هي شواهدهم ، وادلة عليهم ، الى الكناية بلفظ الغيبة، فقالوا : إن راى الملك أدام الله علوه ، ونسأله حرس الله ملكه ، ونحو ذلك ، وتحاموا (إن رأيت) و (نحن نسألك) ، لما ذكرناه ...))(٩٤).

ومع أن ابن جني اكد مراراً عناية العرب بالمعنى ، اشار الى أن عنايتهم باللفظ موازية للعناية بالمعنى، بل هي لأجله ، يقول : ((... ان العرب ، كما تعنى بالفاظها فتصلحها وتهذبها وتراعيها ، وتلاحظ احكامها بالشعر تارة ، وبالخطب أخرى ، وبالأسجاع التي تلتزمها وتتكلف استمرارها ، فأن المعاني اقوى عندها ، واكرم عليها ، وأفخم قدراً في تفوسها))(٩٥)، ويعلل عناية العرب بالفاظها، بانها وسيلتها الى اظهار المعاني على نحو يجعل وقعها، في السمع ، اكثر عذوبة وقبولاً، ودلالتها أقوى، مما نجده في قوله: (فانها لما كانت عنوان معانيها، وطريقا الى اظهار اغراضها، ومراميها، اصلحوها ورتبوها، وبالغوا في تحبيرها وتحسينها، ليكون ذلك اوقع لها في السمع، واذهب بها في الدلالة على القصد، الا ترى أن المثل اذا كان مسجوعاً لذ ،

يؤتي به لبيان أن المعنى هو حقيقي ، على أن عدم التوكيد يفضي الى المجاز ، يقول : ((وبعد فأذا عرفت التوكيد لم وقع في الكلام – نحو نفسه وعينه واجمع، وكله وكلهم وكليهما وما اشبه ذلك– عرفت منه حال سعة المجاز في الكلام، الاتراك قد تقول: قطع الامير اللص، ويكون القطع له بامره لا بيده، فاذا قلت : قطع الامير نفسه اللص، رفعت المجاز ، من جهة الفعل وصرت الى الحقيقة ، ولكن يبقى عليك التجوز من مكان آخر ، وهو قولك : اللص ، وإنما لعله قطع يده أو رجله، فاذا احتطت قلت : قطع الامير نفسه يد اللص أو رجله...))[٨٣] منتهياً، من ذلك كله ، الى القول : ((فوقوع التوكيد ، في هذه اللغة ، أقوى دليل على شياع المجاز فيها واشتماله عليها))[٨٤].

ويرى أن المجاز ملحق بالحقيقة لكونه قابلاً للتوكيد كما تؤكد الحقيقة . من ذلك قول الفرزدق:

عشية سال المربدان كلاهما　　سبحانه موت بالسيوف الصوارم

((وانما هو مربد واحد ، فثناه مجازاً لما يتصل به من مجاورة ، ثم انه مع ذلك وكده وان كان مجازاً ....))[٨٥] .

وقد اورد ابن جنّي امثلة على المجاز الذي علاقته سببة ، ومسببة ، في باب وسمه بـ (باب في الاكتفاء بالسبب من المسبب، وبالمسبب من السبب))[٨٦]، قال في اوله:((هذا موضع من العربية، شريف لطيف ، وواسع لمتأمله كثير .... فمن ذلك قول الله تعالى: ((واذا قرأت القران فاستعذ بالله)) وتأويله ، والله اعلم ، اذا اردت قراءة القران ، فاكتفى المسبب الذي هو القراءة من السبب الذي هو الارادة))[٨٧] ، فالعلاقة، هنا بين المعنى الحقيقي ، والمجازي هي علاقة السببية.

وفي العلاقة المسببة التي تفيد الاكتفاء بالمسبب من السبب اورد امثلة ، منها ((قوله تعالى : (فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عيناً أي فضرب فأنفجرت ، فاكتفى بالمسبب الذي هو الانفجار من السبب الذي هو الضرب.))[٨٨] ونقرأ مثلاً أخر، مما اورده:

((... ذر الاكلين الماء ظلماً ، فما أرى ينالون خيراً بعد اكلهم الماء ، وقال : هؤلاء قوم كانوا يبيعون الماء فيشترون ، بثمنه ، ما يأكلون ، فقال : الاكلين الماء ، لأنه ثمن سبب اكلهم ما يأكلونه))[٨٩] .

(٦) الخصائص : تاليف ابي الفتح عثمان بن جني . حققه محمد علي النجار. دار الهدى للطباعة والنشر. بيروت. ط٢ .د. ت (ط١ ١٩٥٢م) ١/١٥٠، ٢١٥

(٧) م. ن : ١/٨٦

(٨) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : د. احمد مطلوب. مطبعة المجمع العلمي العراقي. بغداد ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م : ١/٣٦١. من بلاغة النظم العربي : د. عبد العزيز عبد المعطي عرفة ، عالم الكتب ، بيروت ، ط٢/١٤٠٥هـ ، ١٩٨٤م: ٢/٢١٧ –٢١٨.

(٩) الخصائص : ١/٨٣، ٨٦ (١١) م. ن : ٢/٣٦٠ ، ٤٤٦

(١٠) مفتاح العلوم : تاليف : ابي يعقوب السكاكي (٦٢٦هـ) ،تحقيق : أكرم عثمان يوسف ، دار الرسالة، بغداد، ط١ /١٤٠٠هـ/١٩٨١م:٣٦١ الايضاح في علوم البلاغة: الخطيب القزويني (٧٣٩م) مكتبة المثنى. بغداد (د. ت): ١/١٧٦، ١٩٩ معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ١/٢٢٤

(١١) البيان والتبيين ، ابو عثمان عمر بن بحر الجاحظ (٢٥٥هـ) : تحقيق : عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي بالقاهرة . ط٥ / ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م: ١/٩٦.

(١٢) الخصائص : ١/٢٩٠

(١٣) م. ن. : ٢/٣٦٠ وأنظر م. ن : ٢/٤٤٦

(١٤) م. ن : ٢/٣٦٠ البقرة : ٦٠ .

(١٥) م. ن : ٢/٣٦١

(١٦) م. ن : ٢/٣٦١

(١٧) م.ن: ٢/٣٦١

(١٨) م.ن : ٢/٣٦١

(١٩) م. ن : ٢/٣٦١

(*) الاحقاف : ٣٥

(٢٠) م. ن: ٢/٣٦٢

(٢١) م.ن :٢/٣٦٢ .

لسامعه ، فحفظه ، فاذا حفظه كان جديراً باستعماله، ولو لم يكن مسجوعاً لم تانس النفس به ، ولا أبقت لمستمعه ..))[٩٦] فابن جني ادرك ، هنا ، اهمية الوسائل السمعية اللفظية ، ولاسيما السجع بوصفه مؤثراً صوتياً، في تحقيق الدلالة المقصودة والانتباه عليها ، مما اكدته الدراسات الصوتية الحديثة[٩٧]، ومما اكده ابن جني في مواضع اخرى من (الخصائص) ، منها قوله: ((فاذا رأيت العرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها، وحموا حواشيها وهذبوها، وصقلوا غروبها وارهفوها ، فلا ترين أن العناية، إذاك ، أنما هي بالالفاظ بل هي ، عندنا خدمة منهم للمعاني ، وتنويه بها، وتشريف منها)) [٩٨] .

وبعد فان هذا البحث الذي كتب على عجل ، قد اقتصر على المسائل البلاغية البارزة والاكثر تزداداً في الدرس البلاغي، مشيرين الى أن هناك مواضع اخرى كثيرة ، بعضها قريب مما ذكرناه ، وبعضها الآخر ذو منحنى اسلوبي يستحق الدرس في بحث خاص.

على أنها جميعها، تعبر عن حقيقة ما يملكه ابن جني، في كتابه (الخصائص) في الاقل، من عقلية نادرة ، ومستوى فكري متقدم ، يجعلنا نتجرأ فنطلق عليه وصف (فيلسوف العربية) استناداً الى ما ذكرناه هنا، والى ما يعرفه غيرنا في ميادين الدراسات اللغوية والنحوية والبلاغية والنقدية.

هوامش البحث ومصادره :

(١) ابن جني النحوي : د.فاضل صالح السامرائي ، دار النذير للطباعة والنشر والتوزيع ، بغداد ، ١٣٨٩هـ /١٩٦٩م : ٢٢٣

(٢) م. ن. : ١٦٠ .

(٣) م. ن: ٢٨،٥٢،٦٩،٧١ . الدراسات اللهجية والصوتية عند ابن جني .

د. حسام سعيد النعيمي ، دار الرشيد للنشر.بغداد :١٩٨٠م:١٣

(٤) م. ن: ٢٨. ابن جني عالم العربية . د. حسام سعيد النعيمي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ط١، ١٩٩٠م:٣٣ .

(٥) م. ن: ٢٢١ (٦) م. ن :٢٦٦

(٤٢) م. ن : ١٠٣/٣.

(٤٣) م. ن : ١٠٤/٣.

(*) النحل : ٥١

(*) النجم : ٢٠ .

(٤٤) م. ن: ١٠٥/٣

(٤٥) م. ن: ٣٦٦/٢ .

(٤٦) م.ن : ٣٣٥/١ .

(*) الواقعة : ٧٥-٧٧ .

(٤٧) م. ن: ٣٣٥/١.

(٤٨) م. ن: ٣٣٥/١-٣٤٠ .

(٤٩) م. ن: ٣٣٧/١.

(٥٠) م. ن : ٣٤١/١ .

(*) الانسان : ١

(٥١) م. ن: ٤٦٢/٢ .

(٥٢) م. ن : ٤٦٢/٢.

(٥٣) م. ن : ٤٦٣/٢ .

(٥٤) م.ن : ٤٦٣/٢.

(٥٥) م.ن : ٤٦٣/٢.

(٥٦) م. ن : ٤٦٤/٢.

(٥٧) م.ن : ٤٦٤/٢.

(٥٨) م. ن: ٣٤٣/١.

(٥٩) م.ن: ٣٨٢/٢.

(*) يوسف : ٨٢ .

(*) طه : ٩٦

(٢٢) م.ن : ٣٦٢/٢.

(٢٣) م. ن : ٣٦٣/٢.

(٢٤) م.ن: ٣٦٦/٢.

(٢٥) م.ن: ٣٦٦/٢.

(٢٦) م.ن : ٣٦٦/٢.

(٢٧) م. ن: ٣٧٠/٢.

(٢٨) م. ن: ٣٧١/٢.

(٢٩) م. ن: ٣٧٢/٢.

(٣٠) م. ن: ٣٧٣/٢.

(٣١) م.ن: ٣٧٣/٢.

(٣٢) م. ن: ٣٧٣/٢.

(٣٣) م. ن: ٣٧٥/٢.

(٣٤) م. ن: ٣٧٥/٢-٣٧٩.

(٣٥) م. ن: ٣٧٩/٢.

(٣٦) م .ن : ٣٨٠/٢.

(٣٧) م. ن: ٣٨١/٢.

(٣٨) الايضاح : ٩/١ .

(٣٩) الخصائص : ١٠١/٣ .

(٤٠) م.ن : ١٠١/٣.

(٤١) م.ن : ١٠٢/٣.

(٧٩) المجاز عند المعتزلة : ١٠٧ .

(٨٠) الخصائص : ٤٤٩/٢.

(٨١) ثورة العقل .دراسة فلسفية في فكر معتزلة بغداد . د. عبد الستار عز الدين الراوي. دار الرشيد للنشر ، بغداد ، ١٩٨٢: ٢٧٣ الخصائص . مقدمة المحقق: ٤٢/١.

(٨٢) الخصائص : ٤٥٠/٢.

(٨٣) م.ن : ٤٥١/٢.

(٨٤) م. ن: ٤٥٣/٢.

(٨٥) م.ن: ١٧٣/٣ .

(*) النحل : ٩٨

(٨٦) م.ن :٢/ ١٧٣

(*) البقرة : ٦ .

(٨٧) م.ن : ١٧٤/٣.

(٨٨) م.ن :١٧٦/٣ .

(٨٩) م.ن : ١٥٢/١.

(٩٠) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ١٥٢/١.

(*) الطارق : ٦ . هود : ٤٣

(٩١) الخصائص: ٢ / ١٨٨ .

(٩٢) المجاز عند المعتزلة : ١٠٨ .

(٩٣) الخصائص : ١٨٨/٢.

(٩٤) م. ن : ٢١٥/١ .

(٩٥) م.ن : ٢١٥-٢١٦.

(٩٦) جرس الالفاظ ودلالتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب: د. ماهر مهدي هلال ، دار الرشيد للنشر . بغداد / ١٩٨٠م. :٣١٣

(٩٧) الخصائص : ٢١٧/١

(٦٠) م. ن : ٣٨٢/٢.

(٦١) م. ن: ٣٩١/٢، ٣٩٢.

(٦٢) معجم المصطلحات البلاغية وتطورها : ٢٠٧/٢، ٢١٤، ٢١٥

(٦٣) الخصائص : ٣٠٠/١.

(٦٤) م.ن : ٣٠٠/١ .

(٦٥) م. ن : ٣٠٢/١.

(٦٦) م. ن : ٣٠١/١-٣٠٢ .

(٦٧) م.ن : ٤٤٢/٢.

(٦٨) م. ن : ٤٤٧/٢ .

(٦٩) م.ن : ٤٤٢/٢ .

(٧٠) م.ن: ٢٤٢/٢ -٢٤٣ .

(٧١) المجاز عند المعتزلة : حسين خليفة صالح .دار المنتدى للنشر والتوزيع . ليبيا . ط١/١٩٩٧ : ١٢٧

(*) الانبياء: ٧ .

(٧٢) الخصائص : ٤٤٣/٢-٤٤٤ .

(٧٣) م.ن:٤٤٥/٢ .

(٧٤) م.ن: ٤٤٦/٢ .

(*) يوسف : ٨٢

(٧٥) م. ن: ٤٤٧/٢ .

(٧٦) م. ن: ٤٤٧/٢.

(٧٧) م.ن: ٤٤٧/٢ .

(٧٨) م.ن : ٤٤٧/٢-٤٤٨.

تنفث كميات كبيرة من غازاتها ونفاياتها ومخلفاتها الى الهواء على شكل غازات سامة وذرات صلبة ،لهذا غدت هذه المشكلة من اكثر المشاكل التي تقض مضاجع النمجتمعات والمؤسسات المسؤولة عن البيئة. وبدأت ترتفع الصيحات والتحذيرات من مغبة هذا المشكل المخيف والتدهور السريع ، ولم تكن هذه المشكلة جديدة في عهدها ، انها مشكلة قديمة عانى منها الانسان على مر العصور، بيد انها لم تكن في العصور القديمة بمثل هذا الحجم والخطورة، وقد عرف الانسان منذ عصور موغلة بالقدم اثر الهواء الفاسد على صحته ، انه ادرك بان صحة الانسان تتوقف على الهواء المنعش والنقي ولا تطيب له الحياة بدونه ، لان الانسان يحتاج الى اكثر من (٣٠) باوند من الهواء كل دقيقة ، وعليه ان ياخذها كما هي ، ويستنشق الفرد حوالي (٢٦) الف شهقة يومياً من الهواء ، وليس بالامكان التأكد من نقاوة جميع هذه الشهقات[٣] خصوصاً في جو يتعرض باستمرار الى الملوثات .

ولم يكن تأثير الهواء الملوث مضراً بصحة الانسان فحسب ،بل امتدت تأثيراته الضارة الى النباتات والحيوان ، وتشير الدراسات الى ان اشجار الصنوبر والبلوط والتفاح في اوربا كانت من اكثر الانواع تضرراً ، ويعود سبب ذلك الى سقوط الامطار الحامضية عليها ، وهي امطار ملوثة بمختلف الغازات والذرات الكيمياوية السامة التي تنفثها المصانع الى اعالي الجو فتلوث الهواء وتمتزج بالسحب[٤] . ويتلوث الهواء بالعديد من الملوثات وهي :

- الاتربة والغبار التي تثار بسبب عوامل طبيعية او نشاطات انسانية .
- الدخان والغازات الناتجة من عمليات الاحتراق والتفاعلات الكيمياوية .
- الروائح الكريهة التي تنبعث من بعض النشاطات الصناعية .
- المكروبات والجراثيم بسبب انعدام الشروط الصحية ، ويكون الهواء وسطاً لتكاثرها وانتقالها .
- التلوث بالضجيج والضوضاء، الذي يعكر صفو الراحة، ويسبب للانسان الكثير من المتاعب والامراض النفسية والعصبية والبدنية، حتى غدت هذه المشكلة من ابرز مشكلات العصر .

هذه مقدمة مختصرة عما يعانيه الغلاف الجوي للكرة الارضية من تلوث افقده جزءاً لايستهان به صلاحيته للحياة بشكلها السليم .

سبق القول الى ان مشكلة تلوث الهواء لم تكن وليدة العصر الحالي ،بل هي قديمة قدم